الجلوس قرب حافة الإنتظار

صديق مصطفى .

يمشى على الطوار ، ينظر فى الواجهات الزجاجية ، لا يرى ما بداخلها. كان وجهه كنصف رمانة عفن . صاخب فى داخله ، هادىء وهو (ايها الشىء الذى فى صدرى ، تفجر ، انفذ الى العالم . أمامك المرايا فى كل ركن ، اخرج لترى نفسك) .

العمل مقرف . وكل شىء حتى الحب ، جريمة .

افاقت الذكريات بالامس عند الشاطىء القريب الفارغ ، فقط عند ما تذكر رحلة القطار الطويلة ، واشياء اخرى ، و ،،، وهى . كان فى انتظارها شاب طويل قبلها من الخدين ، تابطت ذراعه وغابا وسط الاجساد .

عدة اعوام فى السجن شىء غريب وجديد فى الحياة . رغم وجود انفصال حى عن العالم الخارجى ، فهناك شىء مهم يبقى دائما فى الذاكرة حيا ، هو الآخر . نعم حيا : علاقات السجن . وبعد الخروج بدا كل شىء مقرفا الا منظرهما وهما يغيبان وسط الاجساد البشرية .

الليل تهاوى على الشارع ، فى دقائق فرغ . هناك ايضا برد قارس. بقى يتسكع مر وقت طويل . وفى طريق العودةرأى فى ماخور مظلم سعيدا، رفيق الزنزانة . كان متهما بافتضاض فتاة اسمها فاطمة . عند ما دخل وجد اخاه كتب اسطرا فى قصة قصيرة ، اهتم بالامر وقرأ : « افتضت فاطمة عند العصر . عند ما كان الطريق فارغا وجدت فى جانب الطريق ، ملقاة بجوار حقل الذرة . تنزف دما ، دما قانيا ، وفى حالة خطيرة ، من فعل ؟ ! الذى يسمع الحكاية لاول مرة لا يسعه الا ان يتأسف اما نحن فبقينا صامتين ، نقبنا فى كتب العرافات . حتى رجال البوليس الانكيساء لم يستطيعوا ، رغم دهائهم الذى يستعملونه ضد مهربى المخدرات ، لم يستطيعوا ان يصلوا الى المجرم . شىء وحيد نعرفه عن الحادث ، عند ما سألنا فاطمة قالت : خرج لها رجل ملثم من حقل الذرة ، هاجمها كمارد تماما ، وكان ما كان » .

تساءل هل تكلم عن سعيد امام اخيه . لم يدر ، نام دون عشاء .
ـ اوف انت لا يهمك الا التبسأول اصبح جرفتك المفضلة .
ـ لكنك ، يا ولدى متألم ؟
ـ ذلك لا يهـم .
ـ لكنك جـريـح ؟
ـ يوجد جرحى كثيرون غيرى ، يريدون ان يسألهم احد عن سبب جرحهم ، روحى لهم اساليهم عن سبب جرحهم . اما انا فدعينى ارتاح .
ـ لكنك ابنى وانت أقرب الناس الى ؟
ـ عرفت هذا منذ استانست بوجهك فى الصغر .
ـ والان ؟
ـ اراك كـل يـوم .
صمتا . وبعد برهة قالت :
ـ هـل تاكـل شيئا ؟
ـ سافكـر فى الامـر .
تذكر السجن . قال له الخبير النفسانى يوما : زرت كل سجـون العالم . ابحث . وجدت كل الاشياء امامى معقولة ، والسجناء مظلومون، يتـامـى !
ايضا تذكر الشعر الذى نقشه على الحائط الكالح الذى لـم يـر الشمس يـوما « رغم الحاجـز اراك يا حبيبتـى ، اراك كالشمـس » وعنـد مـا سألـه السذى يشاركه الغرفة ـ وكـان شاعـرا ـ ان يقرا له القصيدة ، اعجب بها وكتبها فى مفكرته . نصحه بأن ينشرها عند ما يخرج من السجن . تساءل فى هذا الصباح هل يفعل ؟ لم يستطع ان يجيب .
عاد الى الشاطىء . كان يفكر فى كلمات امه الاخيرة وقارنها بشعر أخيه . فتذكر (البحر الصامت) وقال فى نفسه . كذلك هـذا البحـر : (بحرنا صامت ليس كمثله بحر . بحرنا لم يعد صامتا ، هاج . اطفـأ نارنا واستمدت منه برودة لعينة . ابعدتنا عنه ابعدته عنا . لم نعد نستطيع ان نمارس الحب فوق رماله) .
تساءل هل من المعقول ان ينشر مثل هذا الكلام . فكر طويلا . اخيرا ضحك فى سره على نصيحة صديقه الشاعر .
هذا الشاطىء اصبح حافة خطيرة ، تسقط عبرها الاشياء فى هوة سحيقة . الامواج لا تزال هادئة . سيخرج منها شىء ، من هذه الزرقة ، فلانتظر . التمثال المنصوب عند سور الشاطىء ـ كان يؤمه العشاق عبر كل الفصول ـ تحول حنانه الى عطلة ، واصبحت عيناه ـ عيناه الحالمتان، فوهتين تقدحان شررا ، وتنتظران .

(هنا تموت الذكريات وتحيا) . حتى الحب اصبح جريمة ، والمحبون مجرمون . فى رحلة القطار الطويلة فكر فى ان يكلمها ، كانت وحيدة ، امامه . وكان وحيدا . كان يعيش فى تلك اللحظات كجزء من العالم . ملابسه وخدها هى التى كانت تنتمى الى عالم قديم . هكذا احس، نزلت من القطار ، تبعها . سارت على الرصيف طويلا ، ظل يتبعها و ، و وقبلها الشاب من خديها وأخذها بهدوء . فعل ذلك كأنما تسلم بضاعة رائجة . فى تلك اللحظات بالضبط عرف انه كملابسه ، ينتمى الى عالم قديم . وتحققت الفكرة عند ما راى نفسه فى المرآة .

سمع صراخا حادا ، فتاة تصرخ . كان الفصل خريفا والشمس هزيلة . هناك هناك بعض العجزة ينتفون اعشاب البحر . سربلتهم الايام بجلد منكمش وثياب يسخر منها الهواء . بعض الشيوخ كانوا جالسين فقط ، الوقت كان عصرا . لم يكن حقل ذرة هناك ، بل رمل وشاطىء يحتضر وأمواج سيخرج منها شىء ! . اشتد انقباض نفسه تحركت اقدامه جرى . كانوا اربعة أشخاص ، وصراع مروع . ارتطم راسه بالجدار رغم ذلك قاوم ، قاوم بعنف . العجزة لا زالوا جالسين . صراخ الفتاة لا يزال ايضا يقبع فوق صمت الشاطىء كثقل هائل . تذكر عنوان قصيدته الاخيرة : « عند ما يفكر العجزة بتلك الطريقة العتيقة يتحفر وجه السماء يا حبيبتى » .

الاشخاص الاربعة ، لا زالوا هناك ، يؤكدون حضورهم الدائم . الصراخ لا يزال ايضا والمقاومة . والراس يرتطم بالجدار : (لو وجدوك هكذا لعدت حالا الى الزنزانة 777) لكن ! سيظهر شىء . وعند ما سقط أرضا كان الاربعة قد فروا . بقيت فقط تلك الفتاة . والعجزة يتهامسون . ولم يظهر شىء من البحر .

ظل وجهه وراسه يغور بالدم . نفسه متقززة كانت . قلب عدة صفحات من حياته . فارغة بيضاء . فى تلك الدقائق بدت حتى علاقات السجن شيئا سخيفا قابلا للنسيان . الا الشاطىء ففيه دائما يطفأ اللهب الظامىء . فلأنتظر .

قصيدته الاخيرة احتار فى نهايتها . كان يتكلم فيها عن اربعة اشخاص وفى الشاطىء ها هو يلتقى بهم . كان يحاول احترامهم بكل ما أوتى من قوة . والعجزة لم يكونوا هناك على الورق . الاربعة حاولوا هزمه قبل دقائق . كان ينتظر ظهور شىء من البحر ! لكن الشاطىء فرغ حتى من العجزة . حدث ذلك ، عند ما تهاوى الليل . الجرح يغور أكثر ، كان شرسا كنمر هندى رغم ارتطام راسه بالجدار .

وفى الشارع ظل يتسكع ، بينما نظرات الشرطى تقتحمه . وفى الماخور راى سعيدا يدلك فى عصبية عدوانية هدى قحبة لا وجه لها . (هذه المرة يمارس الحب فى مكانه . ولا يخرج من حقول الذرة فى العصر)

— ايـــن تسكـــن ؟

لم ينتبه الى انها كانت تتبعه طوال الوقت الا عند ما سمعها تسأل! قبل ان يعود ، وعند ما شاهد رفيق الزنزانة يدلك تانيك النهدين فكـــر فى أن العودة الى البيت شىء مقرف . لولا الظلام الذى انهمـــر . وتلك البرودة التى تقلص عضلات الوجه ، ولولا ايضا تلك النظرات .

(ماذا تعنى محاولات أخيه فى القصة القصيرة . انه كعقل اليكترونى يدون كل الاحداث ، وبعد ذلك يفشل فى النهايات . رغم ذلك يستطيـــع أن يفهم أن المأساة لكن تكرر . فهو لم يقابل شاعرا ولم ير ماردا يخرج مـــن حقول الـــذرة) .

سيحاول البقاء فى الشارع ، هكذا قرر ، لكن .. التفت الى جانبـــه الايمن . كانت كهى ، كبضاعة رائجة . كرحلة قطار طويلـــة ، الشعـــر المنسدل على الكتفين اثار فى نفسه ذكريات هائلة وبعيدة . اما منظرها وهى تقبل ذلك الطويل فتد طحن فيه غالة الرجولة . حزن . استمز واقفا ، لـــولا ان عـــاد السؤال .

— أيـــن تسكـــن ؟

أين سأذهب يا عقلى ، يا خائن ! أرجوك الا تفكر بتلك الطريقـــة العتيقة . لا اريد ان يتحفر وجه السماء . ودون ان يشعر سألها (كانما وانتته رغبة فى تقديم نفسه) :

— هل تعلمين من انا ؟

— .....

— لماذا تتبعينى هكذا . هل انت بوليس ، الا تعلمين اننى مجرم خطيـــر ؟

— تكـــذب

— بل هى الحقيقة ، هذه أوراق السجن .

— لكننى لا أود ان أفارقك بعد الذى حدث

— مـــاذا حدث ؟

— اربعـــة خنازيـــر

— مـــا لهـــم ؟

— حاولـــوا أن ، أن

— وبعـــد ؟

— ظهـــرت كمـــلاك

— أنـــا ؟

— نعم أنت

— لا شك أنكَ تهذين

— وجرحت . ارتطم رأسك بالجدار ، انظر لا ... ات الدماء تتفجـــر

كتبع لمس مكان الجرح ، تألم . (هذه الحمقاء تعرف كل شيء)

ـ لكن ماذا كنت تعلمين هناك ؟ الا تعلمين ان المكان خطر . ومليء دائما بالخنـــازيـــر ؟

ـ لاول مرة يقع ذلك . وانت ماذا كنت تفعل هناك ؟

ـ (سؤال ذكى ، كأنني ـ في نظرها الان ـ كنت ذاهبا للصيد ، لكنني بلا قصبة ، ستظن انني كنت ذاهبا لاصطياد انسان ربما كان هى) ظل صامتا والشارع فارغ .

ـ اي تكلم . ماذا كنت تفعل هناك ؟

ـ (سعيد لعله الان ما يزال يدلك تانيك النهدين . والشاعـــر آه الشاعر أين هو ؟ ماذا يفعل الان . لا ، لا أعلم عنه شيئا) كنت انتظر .

ـ مـــاذا كنت تنتظـــر ؟

ـ انتظر شيئا مهما . سأذهب الان ، الى اللقاء .

تشبثت بذراعه ..

ـ مـــاذا كنت تنتظـــر ؟

ـ قلت لك لا يهمك ذلك

ـ لن افارقك حتى تقول ، والا بلغت البوليس انك ..

ـ احس انه انهزم . وقال في ضيق

ـ خرافة قديمة تقول : ان البحر سينشق يوما . وتظهر فيه كنـــوز فرعون التى غرقت معه . ستظهر ايضا الطريق التى شقها موسى بالعصا. وتظهر لكل ذى حاجة حاجته ، لهذا انا انتظر كل يوم .

ـ ومـــا هـــى حاجتك ؟

ـ نهايات محترمة لعدد كبير من القصائد . وايضا نهايات لقصص اخى الذى .. قبل ان يتم قالت عدة أشياء ،، فعلت عدة أشياء ، لم يدر الا شيئا واحدا بعدها ، هو انه كان في طريقه الى البحر وكانت بجانبه. وعند ما وصلا الى الشاطيء كان العجزة لا يزالون هناك وايضا كان الاربعة تساءل ما وجودهم هنا ؟ ابتسموا له عند ما رأوه . جلسا فوق الرمل بينما كانت الصور تمر امام عينيه واهنة كالعياء . وظلا يرقبان الافق البحـــرى الازرق في انتظار ان يظهر شيء . يرقبان ايضا طيور البجع وهى تصيـــد السمـــك .

صديـــق مصطفى